

صورة المرأة الشمالية في رحلة ابن فضلان

The image of the northern woman in Ibn Fadlan's journey

عبد الغني لبيبات *

Abdelghani Lebibat

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية المعاصرة

جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريش، (الجزائر)

University of Mohamed El Bachir El Ibrahimi, Bordj Bou Arréridj, (Algeria)

abdelghani.lebibat@univ-bba.dz

تاريخ النشر: 2023/12/02

تاريخ القبول: 2023/09/26

تاريخ الإرسال: 2023/08/07

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة إلى استجلاء وتفكيك طبيعة الصورة الاثنوغرافية التي رسمها الرحالة ابن فضلان عن أهل الأصقاع الشمالية في رحلته المشهورة، كما توضح أهمية رحلته، ومسارها، وقيمتها الأدبية والتاريخية، وتبين ثراء هذه الرحلة التي وقف فيها الرحالة على تصوير عادات الناس وتقاليدهم، وطريقة كلامهم وتعاملاتهم وسلوكياتهم وأزياءهم، وطرائق عيشهم وعباداتهم، وطقوسهم في جميع الأفضية الجغرافية التي اخترقها بقافلته، وتقف الدراسة بشيء من التحليل عند صورة المرأة في هذه الأقطار، والتي أخذت اهتماما بالغا من طرف الرحالة، فرسم لنا صورة عن المرأة التركية والصقلبية والروسية والحزرية، جاءت في أغلبها نمطية- ترشح بالتمايز والاختلاف، تحكمها رؤيتان حضارية من جهة وعقائدية من جهة أخرى.

الكلمات المفتاح : الصورة، الرحلة، المرأة، النمطية، الاثنوغرافية، الشمال.

Abstract :

This study seeks to elucidate and dismantle the nature of the ethnographic image drawn by the traveler Ibn Fadlan about the people of the northern regions in his famous journey. It also clarifies the importance of his journey, its path, and its literary and historical value. And the richness of this trip was revealed, in which the traveler stopped depicting people's customs and traditions, their way of speaking, dealings, behavior, fashion, ways of living, worship, and rituals in all the geographical spaces that he penetrated with his convoy. On the part of the traveler, he painted for us a picture of the Turkish, Saqlibi, Russian and

* عبد الغني لبيبات: abdelghani.lebibat@univ-bba.dz

Khazarian women, most of which were stereotyped - filtered by distinction and difference, governed by two civilizational visions on the one hand and ideological on the other.

Keywords: image, the journey, woman, the stereotypical, the ethnographic, North.



المقدمة:

ازدهرت أبحاث الصورة في العقود الأخيرة، وصارت من أخصب المجالات التي يمكن أن يتناولها البحث، لما لها من أهمية استراتيجية في تحقيق التواصل والتقارب بين الشعوب والثقافات، وذلك بالوقوف أولاً عند طبيعة الصور التي تشكلها أُم عن أخرى، ثم التوقف عند طبيعتها، ودواعي تشكيلها، ومرجعيات هذا التشكيل، ذلك إنَّ الجهل بالآخر غالباً ما أوقع الأنا - خاصة أنا الجغرافي أو الرحالة - في محوارة من الغلط والضبابية في تشكيل صورة الآخر، فجاءت هذه الأخيرة نمطية، ترشح بالدونية والانتقاص.

وعليه كان من الضروري الحفر في طبيعة التمثيلات الثقافية التي يرسمها المبدعون عن الآخر لاسيما الرحالة، كونه ينتقل مكانيًا وزمانيًا بروحه وجسده إلى أفضية جديدة، فيرى عوالم لم يعهدها، وأنساق ثقافية جديدة، وبنى اجتماعية مغايرة، تجعله يرسم انطباعاته بطريقة معينة قد يمتزج فيها الواقعي بالمتخيل في بعض الأحيان، وهذا ما حدث في رحلة ابن فضلان - موضوع الدراسة - إذ وقع عليها الاختيار كونها تجسّد بعمق تمثيلات مفارقة لشعوب شالية كانت مجهولة بالنسبة لدار الإسلام في العصر العباسي آنذاك، فرسم الرحالة لها صورة اثنوغرافية بالغة التنوع والثراء، ووقف باهتمام عند صورة المرأة في هذه الأطراف القصية من الكرة الأرضية.

عمدت هذه الدراسة إلى تفكيك طبيعة الصور المشكّلة تجاه الآخر، قصد تقصي مرجعيات وعوامل بلورتها، كما سعت للمقارنة بين الصور المشكّلة في كلّ رقعة جغرافية وصلتها قدم الرحالة.

وقد احتوت الدراسة أربعة عناصر مهمة هي على التوالي: المفهوم اللغوي والاصطلاحي للصورة، التعريف بالرحلة والرحالة وبيان قيمة الرحلة العلمية والتاريخية، الصورة الاثنوغرافية لبلاد الشمال وأسلوبية ابن فضلان في رسالته، وأخيراً: صورة المرأة الشالية في رحلة ابن فضلان.

وجاء هذا البحث إجمالاً لي طرح إشكالا جوهرياً يمكن صياغته في سؤالين فرعيين كما يلي:

- ما طبيعة الصورة الاثنوغرافية التي رسمها ابن فضلان في رحلته عن بلاد الشمال؟

- وكيف جاءت تمثيلات المرأة الشالية في رسالته المشهورة؟

أولاً: حول المفهوم اللغوي والاصطلاحي للصورة :

أ- لغة:

جاء في لسان العرب في مادة: صَوَّرَ: "تصوّرت الشيء توهّم صورته، فتصوّر لي، التصاویر: التمثیل، وفي الحديث: أتاني الليلة ربي في أحسن صورة، قال ابن الأثير: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها وعلى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، ويقال صورة الفعل كذا وكذا أي: هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي: صفته، فيكون المراد بما جاء في الحديث أنه أتاه في أحسن صفة"¹. وصوّره: جعل له صورة مجسّمة،² وفي التنزيل: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة آل عمران، الآية 06.

الصورة كلمة عربية قديمة الظهور في أدبنا العربي وهي معرّفة ولا يمكن حذف أحد حروفها لأنها أصيلة، وماضيها (صَوَّرَ) مضارعها (يُصَوِّرُ) مشتقة من المصدر (تصوير) وتجمع على ثلاثة أشكال (صُورَ)، (صَوَّرَ)، (صَوَّرَ)،³ والصورة لغة تعني الشكل، لقوله تعالى: "في أيّ صورة ما شاء ركبك". سورة الانفطار، الآية 08.

وتكتسب كلمة (الصورة) في اللغة العربية معاني أخرى قريبة من الشكل، حسب السياق الذي ترد فيه فيمكن أن ترادف: صفة أو هيئة، أو خيال، أو وهم، أو حقيقة حالته رمزه.⁴ وأما التصوير فهو إبراز الصورة إلى الخارج بشكل فني، فالتصوّر إذا عقلي، أما التصوير فهو شكلي، "فالتصوّر أداته الفكر فقط، وأما التصوير فأداته الفكر واللسان واللغة".⁵

وجاء أيضا أنّ: "الصورة مشتقة من اللاتينية (Imago) وهي تمثيل داخليّ مستبطن لموضوع غائب مدرك قبلا، أو مصاغ من قبل الدّهن".⁶ كما أورد صاحب معجم الزائد ستة معاني للصورة هي: "1: الشكل، 2: الوجه، 3: كلّ ما يصوّر، 4: الصّفة، 5: التّوع، 6: في الفلسفة صفات الشيء المميّزة".⁷

أما في المعاجم الأجنبية فقد ورد في معجم (le robert) أنّ الصورة: "Reproduction estate on representation analogique d'un être d'une chose..., manifestation de l'invisible ou de l'abstract".⁸ وقد عزفت الصورة (image) بحسب قاموس أكسفورد: لتعني نسخة طبق الأصل، أو صورة أو محاكاة صرفة للواقع الخارجي وعلى الأغلب البصري. وعموما فإنّ المعاني اللّغوية للصورة تتراوح بين: الشكل، الهيئة، التّوع، الصّفة، الخيال، الوهم، الحقيقة، التمثيل.

ب- اصطلاحاً:

إذا استثنينا مفهوم (الصورة) عند القدماء التي "انحصرت (...) في المحسنات البديعية، فلم يكن للصورة قديماً سوى مفهوم لا يتعدى التشبيه والمجاز".⁹ فإنّنا نجد العديد من الدارسين المحدثين قد عرضوا لها وأسهبوا في الحديث عنها، كلّ دارس من وجهة معيّنة تتماشى وحقل تخصصه، فتحت عنوان "دراسة الصورة: تأمل معرفي مشترك" يورد دانييل هنري باجو عددا من الحقول المعرفية المختلفة التي تتجاذب الصورة

فيقول: " يتقاطع هذا النوع من الدراسات مع البحوث التي يقوم بها علماء السلالات البشرية، وعلماء الإنسانيات، وعلماء الاجتماع، ومؤرخو العقلية والحساسيات الذين يطرحون مسائل حول ثقافات أخرى، والغيرية والهوية والثقافة، والتنافر الثقافي، والاستلاب الثقافي، والرأي العام أو الخيال الاجتماعي".¹⁰

وإذا أخذنا تعريفها عند الفلاسفة نجد أنهم قد ميزوا "في هذا المجال بين كلّ محسوس وملمس، وحصروا المركبات الحسية فيها، لأنّ الفكر في الفلسفة هو ما يتألف من مادة وصورة، الأولى هي حدوده، وأما الثانية فهي العلاقات بين الحدود، لأنّ الفكر لا يتحقق بدون صورة، وهي ما يتحدّد به الشيء ويتعيّن".¹¹

لذلك نجد أنهم قد قبلوها بمعنى المادة باعتبارها هي شكلا، فقد عرّفت أيضا على أنها: " تعني الصفة أو الشكل، وليس هناك مادة غير صورة إلّا في الذهن".¹²

ويعرّفها كذلك معجم وبستر (webster) بأنها: " التقدّم العقلي لأيّ شيء لا تقدّمه بالحواس على نحو مباشر، أو هي إحياء محاكاة للتجربة الحسية".¹³

أما في علم الاجتماع ف" لها مفهوم عقلي شائع بين الأفراد أو جماعة معيّنة، يشير إلى اتجاه هذه الجماعة نحو شخص معيّن، وحتى وظيفة بعينها، ويمتد ذلك للجنس بعينه، أو فلسفة أو سياسة قومية، أو أيّ شيء آخر".¹⁴

وهناك من الباحثين من يربط مفهوم الصورة بمفهوم المرأة التي تعرّف بأنها سطح " يعكس كلّ ما يقوم أمامه، فأيّ شيء يمتلك خاصيّة السطح العاكس فهو مرآة (...) والذي يقوم أمام المرأة يعرف باسم الأصل، وأما الذي تعكسه فهو يعرف بالصورة أو الانعكاس وتدور الصورة مع أصلها وجودا وعدما، فإن وجدت كان الأصل موجودا، وإن انعدمت أو غابت كان الأصل منعما أو غائبا".¹⁵

وبالتالي فهذا " التعريف العام للمرأة يحيلنا إلى مفهوم الصورة التي تمثل انعكاسا لأصل سابق لها".¹⁶

وما يهّمنا نحن في الحقيقة هو مفهوم الصورة في مجال الدراسات المقارنة، وهو مجال بحثي مستجد أشار إليه الدكتور محمد غنيمي هلال ويّين حديثه قائلا: " هذا أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن، لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من نحو ثلاثين عاما، ولكنه على حداثته نشأته - غنيّ بالبحوث التي تبشّر بأنّه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها رّوادا في المستقبل، ذلك لأنّه أيسرها منهجا، وأوضحها معالما، وأكدّها في الوصول إلى غاية الباحث".¹⁷

حيث أنّ هذا الأخير يهّم بتحليل وتفكيك الصورة أو التمثيلات الجزئية التي يتخذها شخص أو شعب أو أمة عن شخص أو جماعة أو مجموعة من الأمم والقوميات، وغالبا ما تتسم هذه الصورة بالثبات والرسوخ، ويغدو من العسير تغييرها، كما أنّها قد تتعرّض للتخيّل أو التبخيس بحسب المواقف التي تتخذها الأنا الناطقة من الآخر - المنظور إليه - أو موضوع التمثيل.

وقد وجدت أبحاث الصورة في حقل أدب الرحلات محالا وميدانا خصبا استنبتت فيه الكثير من الصور التي نسجها الرحالة، حول الفضاءات التي انتقلوا إليها، ذلك أنّ الرحالة بطبيعته يمتاز بنظر ثاقب وعين

باصرة متأمة تقتنص العديد من تفاصيل الحياة حول الشعوب التي يخترقها جغرافيًا، فيسجل غالباً في رحلته عاداتها وتقاليدها، وطريقة كلامهم، وتعاملاتهم وسلوكياتهم، وأزياءهم، ومعاملاتهم، وطرائق عيشهم، وعباداتهم، وطقوسهم، وهو في كل ذلك لا يمتنع نفسه أن يبدي آراءه ومواقفه حول ما يراه وما يشاهده، خاصة إذا كانت من قبيل المثير والمدهش والعجائبي أو غير المألوف، المفارق لنسقه الثقافي الذي تعود عليه، ولعلّ هذا ما نجده في رحلة ابن فضلان - موضوع الدراسة - والتي سنقف فيها على صورة المرأة، كونها استرعت اهتماماً بالغاً من طرف الرحالة، الذي يبدو أنّه كان واقفاً تحت صدمة متولّدة عن المفارقة الشاسعة بين عالمين متباعدين ثقافياً واثوغرافياً مما جعل الصورة التي قدّما عن هذه العوالم المرتادة استثنائية وفيما يأتي بيان ذلك.

ثانياً: التعريف بالرحلة، والرحلة، وبيان قيمة الرحلة العلمية والتاريخية:

أ- التعريف بالرحلة: "ابن فضلان":

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان، كما أجمعت عليه جلّ المصادر التي احتفظت بذكره، وهو مصنف رسالة الوفد الذي أرسله الخليفة المقتدر العباسي (282هـ/320هـ) إلى ملك البلغار الذين يقطنون ضفاف الفولجا، لم يكن عربي الأصل، بل كان من موالي الخليفة كما تذكر دائرة المعارف الإسلامية، أرسله ليفقه الناس في الدين، ضمن وفد برئاسة سوسن الرّسي، وعلى الرغم من عدم وجود أية معلومات عنه، إلّا أنّه يحاول دائماً في الرسالة أن ينسب إلى نفسه الدور الرئيسي، مثل قوله: "فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه، وتسليم ما أهدى إليه، والإشراف على الفقهاء والمعلمين"¹⁸.

وفيما يلي عرض لما ذكره في مستهلّ رسالته، في قصّة إرسال الوفد: "لما وصل كتاب ألمش بن بطوار ملك الصقالبية إلى أمير المؤمنين المقتدر، يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقه في الدين، ويعرفه شعائر الإسلام، ويبنى له مسجداً، وينصب له منبراً ليقم عليه الدّعوة في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصّن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سأل من ذلك، وكان السفير له نذير الحرّمي (...)، وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبية رجل يقال له عبد الله بن باشتو الخزري، والرسول من جهة السلطان سوسن الرّسي، مولى نذير الحرّمي، وتكين التّركي، وبارس الصقلاي، وأنا معهم على ما ذكرت"¹⁹.

وعلى الرغم من كون ابن فضلان المرشد في الرحلة، لم يرد اسمه في مصادر الخلافة العباسية بأيّ وجه من الوجوه، وهذا في الحقيقة لا يمنع من أن يصبح الشخصية المركزية التي تنقل للأجيال وقائع هذه الرحلة إلى مملكة الصقالبية وعاصمتها البلغار على نهر الفولجا في البلاد الروسية الحالية.²⁰

وهناك طرح تفرد به الدكتور ناصر عبد الرزاق المواني في كتابه "الرحلة في الأدب العربي حتّى نهاية القرن الرابع الهجري" يقول فيه: "والشائع عن ابن فضلان أنّه كان فقيهاً، وهذا الاعتقاد نتج عن خطأ في الاستدلال من قبل بعض الباحثين الذين تتبعوا حركات وسكنات وأفكار ابن فضلان في رحلته، بيد أنّ طبيعة المهمة التي تولّاها تدلّ على أنّه كان إدارياً في المقام الأول، خاصة أنّه قد أسند إليه -كما يقول- الإشراف على الفقهاء والمعلمين، وتسليم الهدايا وقراءة الكتاب، والمهمة الأخيرة تغلبّ كونه موظفاً بديوان

الرسائل بديوان الخلافة، وقد أوقع هؤلاء في الخطأ قيامه بدور القبية الذي تخلف عن السفارة خوفا من البرد، وهو دور فرض عليه، وساعد على قيامه به ثقافته المتنوعة والتزامه بتعاليم دينه".²¹

وما يهمننا نحن في الحقيقة هو براعته في اقتناص الصور وتشكيلها حول الفضاءات الجغرافية التي حل بها، فإلى جانب الدور الإداري والفقهية الذي أفلح فيه ابن فضلان إلى أبعد حد، كان رحلتنا مصورا واثناوغرافيا بارعا في التقاط دقائق التفاصيل والصور حول الشعوب والأمصار التي حل بها.

ب- التعريف بالرحلة: (مسارها):

رسم نص الرحلة المسار العام لها الذي يبدأ ببلاد العجم والأترك، ثم الصقالبة، ثم الروسية، ثم الخزر، أما المسار الأكثر دقة، والذي تتبعه الرحلة منذ خروجه من بغداد وحتى صوله بلاد الروس، فقد مرّ بالأماكن والمدن التالية كما يوضحه نص الرحلة:

بغداد، التبروان، التسكر، حلوان، قرميسين، همدان، ساورة، الزبي، خوار الزبي، سمنان، الدامغان، نيسابور، سرخس، مرو، قشمان، أمل، آخري، بيكند، بخارى، خوارزم، الجرجانية، جيت، الصقالبة، الروسية، الخزر.

وقد أثار المسار العام للرحلة الكثير من النقاش، إذ كان يتوجب الحديث عن بلاد الخزر بعد بلاد الصقالبة مباشرة، لأن الطريق إلى الروس يمرّ أولا بالخزر، فما سبب هذا الخلل يا ترى؟ أريد إلى عدم اهتمام ابن فضلان بأمر تسجيل شؤون الروس والخزر، ولذلك سجل انطباعاته على تلك البلاد كيفما اتفق كما يقول سامي الدهان، أم أنّ مخطوطة مشهد (طوس) نفسها تعاني من خلل منطقي ما، بسبب ناسخها أو تلف جزء منها كما يذهب إلى ذلك شاكر لعيبي، الذي يعود ليجزم أنّ ابن فضلان كتب المخطوطة بهذا الشكل الذي نعرفه مدرجا انطباعات وقصص رآها في هذين البلدين دون عنايته بترتيب موقعها".²²

وعموما فقد نالت رسالة ابن فضلان شهرة كبيرة في عصرها والعصور التالية، كما لقيت اهتماما كبيرا في العصر الحديث، وكان هذا الاهتمام - قديما وحديثا - دليلا على مكانتها السامية، ذكر ياقوت أنّ " قصة ابن فضلان وإنفاذ المقندر له إلى بلغار مدونة معروفة مشهورة بأيدي الناس، رأيت منها عدة نسخ".²³

واعتمادا على النص المدون للرحلة نقل جغرافيون ورخالة تالون لابن فضلان نصوصا مع الإشارة إلى مصدرها حينها، وإغفال ذلك أحيانا، أو الإشارة إليه بكلمات مبهمّة، فالإصطخري نقل عن ابن فضلان كثيرا، وأضاف بعض المعلومات، ثمّا أحدث لبسا في بعض النسخ، فأضيف إليها نص من نصوص الإصطخري على أنّه لابن فضلان، وقد فطن محقق الرسالة إلى ذلك، فنقل نص ابن فضلان عن ياقوت، بعد تخليصه من إضافات الإصطخري، وذلك به رسالة ابن فضلان، نقل الإصطخري عن ابن فضلان، ونقل ابن حوقل - بالتالي - عن الإصطخري، وكذلك نقل المسعودي والبكري، وغيرهم عن ابن فضلان مباشرة، ولعلهم نقلوا جميعا عن الجيهاني الوزير الساماني المشهور، وقد ألف كتابه بعد سنة (310هـ/922م)، أي بعد رجوع ابن فضلان من رحلته، وكتاب الجيهاني ضاع ولم يصلنا لنوازن بينه وبين مؤلفنا... ابن فضلان، ومعروف أنّ

الجياني قابل السفارة أثناء ذهابها، وأكرم أعضائها، فقد تقدّم على حدّ تعبير ابن فضلان " بأخذ دار لنا، وأقام لنا رجلا يقضي حوائجنا، ونريح عللنا في كلّ ما نريده ". ومن الطّبيعي أن يقابل ابن فضلان، ولشهرة رسالة ابن فضلان وطرافتها تناولتها الأيدي بالتعديل والتّحريف المتعمّد وغير المتعمّد، حتّى إنّ بروكلمان ادّعى أنّ صاحب معجم البلدان نقل عن مختصر لرسالة ابن فضلان ²⁴.

وبالتّالي تحتلّ هذه الرحلة - إنجازا ونصّا- مكانة معتبرة في التّراث الرحلي العربي إجمالا، بسبب مسارها الجديد غير المكتشف من قبل، وبراعة كاتبها في نسج أحداثها، وفي ما يلي بيان مفصل لقيمتها.

ج- قيمة الرحلة العلميّة والتاريخيّة :

نالت رواية الرحلة صيتا وانتشارا واسعا بسبب تنائي الأصقاع التي حلّت بها وغرابة الأحوال المروية عن مناطق الشّمال، وكما أولى القدامى اهتماما بارزا لهذه الرحلة، ورووها في عدد من مؤلّفاتهم، "أمثال الحموي، حيث حفظ لنا مقتطفات منها موزّعة بحسب المواد في معجمه، وكذا زكريا القزويني في كتابيه " أثار البلاد وأخبار العباد" و " عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" .

تجدّد الاهتمام بها، ولكن هذه الميزة من طرف أوروبا وخاصّة روسيا، لما تنضوي عليه من معلومات قيّمة في تاريخ البلاد التي تجول فيها الرحالة ووصف أحوالها الاجتماعيّة والسياسيّة، وهي بذلك تسدّ ثغرة تاريخيّة عن أنماط معيشة شعوب قلما سجلت، وتكشف في الآن نفسه عن الهوة الفادحة بين المستوى الحضاري الذي انحدر منه هذا السّفير، وبين الأقوام والشّعوب التي حلّ بين ظهرانيها، وكانت ما تزال في طور التّوحش .

ولهذا توجّه اهتمام المستشرقين المهتمين بتاريخ البلغار والروس إلى رسالة ابن فضلان عن طريق الحموي، فترجم رامسون سنة 1814 مقاطع منها إلى الروسية، ونقلها عنه إلى الإنكليزيّة نيكلسون بعد أربع سنوات، وفي سنة 1823 قام المستشرق الروسي فيران بجمع مقتطفاتها من معجم البلدان، مضيفا إليها ما جمعه في مختلف الكتب العربيّة عن قبائل روسيا القديمة، ونشر ذلك في كتاب مستقل مع ترجمة ألمانيّة ²⁵.

يقول كراتشكوفسكي عن هذا البحث الذي قام به فرين " كان أشبه ببراعة الاستهلال في تاريخ الاستعرا ب الروس، واستمرّ ثمانين عاما تقريبا لا يريه شيء بل وحفّر إلى ظهور عدد من الأبحاث بأقلام ممثلي مختلف الاتجاهات العلميّة، احتلّ من بينها مكانة مرموقة أبحاث روزن وبارتولد حيث قام الأوّل بنشر مقال له بالروسية عن ابن فضلان سنة 1902، وقام الثّاني بنشر دراسة عن موضوع رحلات العرب إلى روسيّة سنة 1913. ²⁶

كما عكف الدكتور فراوس رولدس (ت 1957) - وكان أستاذًا للأدب المقارن بجامعة أوّسلو بالنرويج- على ترجمة جزء منها إلى النرويجيّة، وعنه أخذ ميكائيل كريكتورن النصّ الذي حوّله إلى رواية بالانكليزيّة بعنوان (أكلة الموتى)، هذا الأخير الذي يقول في حقّ الرّسالة: " إنّ مخطوطة ابن فضلان هي أقدم

تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الإسكندنافي، وهي بذلك تعد وثيقة فريدة من نوعها تصف بدقة متناهية أحداثا وقعت، تفوق الخيال منذ ما يزيد عن ألف قرن²⁷.

وبحلول الألفية الثالثة توجهت الأنظار إليها من جديد، فظهرت في ثوب جديد بتحقيق شاكرا ليمبي ضمن سلسلة (ارتياح الآفاق) الهادفة إلى بحث أعرق ألوان الكتابة في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيات أدب الرحلة.

وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على قيمة هذه الرحلة سواء على مستوى الدراسات الانثوغرافية المتخصصة، المهمة أساسا بمجموع العادات والتقاليد والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية في مجتمع معين، أو على مستوى الدراسات الأدبية المقارنة، على الاهتمام بكتب الرحلات العربية التي عدّها سعيد علوش في كتابه (مكونات الأدب المقارن في العالم العربي) من إرغاصات الأدب المقارن، إذ تكفي متابعة اتجاهات رحلاتهم نحو الغرب، لتكون فكرة عن مدى مساهمتهم في التحضير لأرضية وممارسة الأدب الحديث عبر اقتباساتهم للأفكار والأشكال والأنماط الجديدة التي كان لها الدور الحاسم في ظهور الصورولوجية (...) سواء أكان ذلك بوعي أو لاوعي، هذا الإدراك هو ما يدفعنا إلى تحليل ظاهرة هذا التقليد في الأدب العربي²⁸. وعليه فقيمة هذه الرحلة لا تتجلى فقط فيما حملته لنا من أفكار جديدة عن أقطار جغرافية متناثرة في فضاء كان ملقًا بالغموض، وإنّما في كونها شكّلت أيضا بمآذنها السردية التخيلية مادة خامة لعلم جديد هو علم الصورولوجيا.

ثالثا: الصورة الانثوغرافية لبلاد الشمال وأسلوبيّة ابن فضلان في رسالته:

إنّ الصورة التي رسمها ابن فضلان في رحلته المشهورة عن أهل الشمال لا تبتعد في واقع الأمر كثيرا عن الصورة التي رسمتها الأدبيات الجغرافية في الفترة القروسطية عن هذه الأصقاع – والتي حكمها في الغالب رؤيتان هما الرؤية الحضارية والرؤية الدينية، فابن فضلان الذي انطلق من بغداد حاضرة العلم والفكر ومركز الإشعاع الثقافي في عصره والذي "عرف ما في عاصمته ومملكته من ترف وحضارة أصبح يستصغر أحوال الممالك التي رآها، وخاصة أوروبا الشمالية، فرسمها رسما غريبا، يشعرون بأنّه كان ينظر إليها في عجب كما ينظر بعض سفراء الغرب اليوم إلى من يستقونهم بسكان الممالك المتخلفة"²⁹.

وبالتالي نجده من هذه الناحية نظر إلى هذه الأصقاع نظرة انتقاصية ترشح بالتأيز والاختلاف، فكان هذا الآخر الذي صوّره لنا – في الغالب – في درجة أدنى من درجة الأنا، وليس شعور الأنا المتعالي هنا وحده المنطلق الأساسي في تشكيل هذه الصورة عن الآخر، بل الرؤية العقائدية لعبت دورا بارزا في ذلك، فالرحلة في القرون الوسطى "كما تكشف لنا المدونات الجغرافية مهما كان مغامرا وجريئا وموضوعيا، فإنّه يتوجّس من الآخر بسبب الاختلافات اللسانية والاجتماعية والعقائدية، وينطوي على فكرة إصلاحية يريد بها إدخال الآخر إلى عالم الحق"³⁰. وهذا ما نجده ماثلا في رحلة ابن فضلان، فهو وإن كان مبعوثا في وفد سياسي منتدب من طرف الخليفة فإنّه كان عليه أداء مهمّة دينية تتمثل في تقوية ملك الصقالبة في أمور الدين

وتعليمه شرائع الإسلام، فهذه هي الفكرة الإصلاحية في الواقع التي كان ينطوي عليها، والتي انتقل لأجلها عبر مسار أخذه "من المعلوم إلى المجهول، ومن المألوف إلى الغريب، بعبارة أخرى نقله من حاضنة الذات إلى حاضنة الآخر".³¹

وبهذا نجد أنّ البعد الديني يأخذ نصيبا وافرا من الأحكام التي يصدرها الرحالة بشأن الآخر، لأنه يتفاجأ في كلّ مرة بسلوكات وطقوس تنافي منظومته الثقافية التي خرج منها ابتداء ومنظومته العقائدية التي يدين بها وبالتالي فإنّ "الآخر عند ابن فضلان يشمل الآخر المغاير، لأنّ قوام دين غير الإسلام يبيح ما حظرته الشرائع الإسلامية، كالكباب الآخر ممّن زارهم ابن فضلان على شرب النبيذ، وطرائق اختيار الموت مع الميت، إضافة إلى العديد من الممارسات التي تؤطر صورة الآخر ماديا وروحيا في الأخلاق والعلم والجهل والصدق والقيم..."³².

وبالتالي فالبعد العقدي حاضر بقوة كمقوم لتشكيل صورة هذا الآخر الذي وصل إليه ابن فضلان لأنّ فطرته الدينية التي فطر عليها تندفع تلقائيا لتساهم في التعبير عن هول الاختلاف مع هذا الآخر وإظهار حجم المفارقة معه، "فالرؤية القرآنية للآخر تتحدد في المختل الديني العام على أساس وحدة الانتماء الإنساني والعقائدي من جهة، وعلى قاعدة التباين والاختلاف من جهة ثانية، والأساس التكويني الأول لا ينفي القاعدة الثانية".³³

فهكذا نجد أنّ ابن فضلان في إطار مرجعيته الدينية يعمد في كثير من الأحيان "إلى مدونة قيمية تتعامل مع الآخر من ثلاث زوايا: الاختلاف والرفض، الانسجام والتوافق، ثم موقف الحياد، مستعملا مفردات وأساليب تعبّر عن الموقف بتوظيفات معجمية ودلالية، تعبّر عن الاختلاف، وتنصب على جوانب الأخلاق والروح".³⁴

وابن فضلان في ذلك لا يفتأ يقدم استشهادات مختلفة عن أحداث رآها تعزّز أقواله وأحكامه وتدعم الصورة التي قدّمها لنا عن هذا الآخر، وأحيانا يكون استشهاده من داخل التسيج النصي لرحلته ممثلا في حوار دار بينه وبين أحد سكان هذه الأقطار الشمالية، وهذا الأمر انتبه إليه الباحث شعيب حليفي حين قال "يلجأ ابن فضلان إلى تقديم صورة الآخر الاثنوغرافية من طرف هذا الآخر نفسه، باستحضار صوته عبر الحوار أو نقلا في السياق على لسان الرحالة".³⁵

فهو مثلا في بلاد الترك لما وصل إلى قوم يقال لهم (الباشغرد) نجده يسجل هذا الحوار "وكّل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل (عضو الذكورة) ويعلّقها عليه، فإذا أراد سفرا أو لقاء عدوّ قتلها وسجد لها، وقال: يارب افعل بي كذا وكذا، فقلت للترجمان: سل بعضهم ما حجتهم في هذا، ولم جعله ربه ؟، قال: لأنّي خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقا غيره".³⁶

فهذه إحدى الوسائل التي يلجأ إليها ابن فضلان لتأكيد الأخبار التي كان قدّمها، ولتعزيز الصورة التي رسمها، لتبدو أكثر تماسكا، وأدعى للتصديق والقبول من طرف المتلقي.

ويقدم لنا ابن فضلان هذه الصورة من خلال لغة شفافة، وأسلوب سلس، إذ يتضح من خلال رسالته "حسن بيانه، وجودة عبارته، وقدرته على الإيجاز غير المحل في التعبير، والدقة في اختيار الألفاظ، فلا تقع له على تقطع ولا استطراد، ولا تقعر في المفردات، ولا تكلف في الإنشاد، حتى ظل أسلوبه من السهل الممتنع"³⁷. فمن خلال هذه اللغة استطاع ابن فضلان أن يجلي لنا صورة الآخر في أكمل نسج وأوضحه في رسالته.

والرحلة وإن بدا لنا في الكثير من مقاطع رسالته أنه يظهر "حرصا واضحا على ذكر المدن والمسافات والأنهار"³⁸. فإن كل ذلك لا يعدو أن يكون أسلوبا تواصليا مع المتلقي يلح من خلاله على مصداقية الخبر ومسار الرحلة وشفافية الصورة، وهو وإن استعمل هذه الأدوات المستعارة من علم الجغرافية، إلا أنه يقف برشاقة بين رواد الأدب الجغرافي وأدب الرحلات، وهذا ما أكدته محقق رسالته الدكتور سامي الدهان لما ذهب إلى القول عن أسلوبه بأنه "لا يتعد عن أسلوب الأديب، ولا يقترب من أسلوب الجغرافي"³⁹.

وهذا اعتراف بالبراعة الأدبية التي تمتع بها هذا الإداري والفقيه في تقديم صورة ناضجة ومتكاملة عن الآخر الشبالي، فكانت هذه الصورة مصاغة "داخل رأسال رمزي يلعب فيه التصوير الفني والأسلوب البلاغي والأداء التخيلي دورا كبيرا في عملية إدراك العالم والآخر"⁴⁰.

والجانب التخيلي في لغة الرسالة نجد بأنه غذي بالسر العجائبي، فرسالة ابن فضلان وإن كانت في أغلبها تتسم بسمة الواقعية والموضوعية، إلا أن الرحلة قد شحنت بعض أحداثها بصبغة فنتازية، وهذا ما أكدته الباحثة علاوي الخامسة بقولها "فلمتصفح لرحلة ابن فضلان يجد نفسه تتجاذبه الفتنازيا الحاملة المغرقة في التخيل من جهة، ومن جهة أخرى اللجوء إلى التعجيب في الحكيم من خلال سرد أحداث يبقى المتلقي مترددا في تصديقها أو تكذيبها، وإن كان الرحالة يبدل قصارى جهده في إسناد مروياته لينال ثقة المتلقي"⁴¹. وبالتالي نجد إلى جانب المقومات السابقة التي ساهمت في تشكيل صورة جلية عن أهل الشمال من طرف الرحالة، نجد الجانب الفتنازي العجائبي قد ساهم كذلك على نحو ما في رسم هذه الصورة، وإن كنا سنجد أنه يكاد يقتصر على بيئة واحد من تلك البيئات التي عبرها الرحالة أو التي اتجه إليها بالأساس، وهي مملكة الصقالبة.

وعلى العموم فإن ابن فضلان حاول رسم صورة متكاملة عن البيئات التي ارتحل إليها، مركزا على جوانب بشرية مختلفة، حيث "تستأثر باهتمامه أحوال الناس المختلفة، وبخاصة حينما يغادر دار الإسلام"⁴². وسنحاول في هذا البحث أن نقوم باستجلاء طبيعة الصورة التي رسمها ابن فضلان عن المرأة الشبالية، حيث أن تصوير المرأة في عاداتها وسلوكها قد أخذ نصيبا وافرا من الصورة الأثنوغرافية العامة التي رسمها ابن فضلان عن هذه الأقطار البعيدة، ولأنه مرّ بأربع بيئات مهمة هي على التوالي: البيئة التركية، بيئة الصقالبة، بيئة الروس، بيئة الخزر، فإننا سنقف في هذه الدراسة عند صورة المرأة كما رسمها رحالتنا في كل بيئة على حدة.

رابعاً: صورة المرأة الشّمالية في رحلة ابن فضلان:

أ- صورة المرأة التركية :

في الواقع أخذت المرأة في الأصقاع الشّمالية جزءاً لا بأس به من اهتمامات ابن فضلان في رسمه الصّورة المتكاملة عن هذه الأقطار، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى الثّباين الزهيب بين نسقه الثقافي وبين الأنساق الثقافيّة لهذه المناطق، فالمرأة التي تركها ابن فضلان في دار الإسلام تحتكم إلى شريعة ربّانية تفرض عليها جملة من التّعاليم والسلوكات التي تنظّم حياتها خاصّة فيما يخصّ الطّهارة والاحتجاب، ولكنه لما يتعلّق الأمر بالمرأة التركية يجد بأنّ الأمر يختلف كثيراً، فهي تعيش في حرّيّة تامّة، وعلى طبيعتها الأولى التي تهتدي فقط إلى العرف دون الشرع، ولذلك سيجد ابن فضلان " نفسه في مهمّة إصلاحية كبيرة، إنّه يريد ترميم عالم ممزّق " ⁴³.

وأوّل ما يلفت من هذه المرأة نجاستها، وانعدام حيائها واحتشاشها يقول: " لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصّة في الشّتاء، ولا يستتر نساءهم من رجالهم ولا من غيرهم، وكذلك لا تستر المرأة شيئاً من بدنّها عن أحد من التّاس " ⁴⁴. هذا الاختلاف الكلي بين ما هو معروف لديه ومتفق عليه بالنسبة له وبين ما يراه الآن رأي العين، يزيد من دهشته تارة، ويصقّب من محامه تارة أخرى، ولذلك نجد يورد مثالا يبدو أنّه انطبع في ذهنه لشدة ما هاله الأمر والمشهد، " ولقد نزلنا يوماً على رجل منهم فجلسنا، وامرأة الرجل معنا، فينا هي تحدّثنا إذ كشفت عن فرجها وحكته، ونحن ننظر إليها، فسترنا وجوهنا، وقلنا: أسْتَغْفِرُ الله، فضحك زوجها وقال للرجل: قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه، هو خير من أن تغطيه وتمكّن منه " ⁴⁵. فالجزء الأوّل الذي رواه ابن فضلان يبيّن هذه الصّورة المتفردة في الحرّيّة المطلقة التي تعيشها المرأة التركية، فهي زيادة على عدم احتجابها من الأجانب والغرباء، ومجالستها لهم، تكشف عن عورتها بحضرتهم، دون أن يكون في ذلك حرج بالنسبة لها، وهذا يبيّن سعة الهوّية بين التّسق الثقافي الذي تنتمي إليه والذي يبدو أنّه لا يعرف مفهوم العورة، وبين التّسق الثقافي الذي ينتمي إليه ابن فضلان وجماعته، وأمّا الجزء الثاني المتعلّق بنجاسات رجل المرأة من تأكيده على أنّها تصون عرضها ولا يمكن الوصول إليه، فهو يحيلنا إلى لفظة ذكرها ابن فضلان من أنّهم " ليس يعرفون الزّنا، ومن ظهوروا منه على شيء من فعله شقوه بنصفين، وذلك أنّهم يجمعونه بين أغصان شجرتين، ثم يشدّونه بالأغصان، ويرسلون الشّجرتين فينشق الذي شدّ إليهما " ⁴⁶. وهذا كلّ تناقض رهيب يراه ابن فضلان -الفقيه والمصلح- فهم من جهة يؤفرون كلّ أسباب الفحش والزّنا، ومن جهة أخرى يعاقبون فاعلها بأشدّ عقوبة، وهذا كلّ انشطار في أنساقهم الثقافيّة، يعبر عنه الزّحالة في صورة متفردة تدعو إلى الدهشة والاستغراب.

ب- صورة المرأة في بلاد الصقلية:

لا تنال المرأة اهتماما كبيرا من الصورة التي نسجها ابن فضلان عن بلاد الصقلية، بالمقارنة مع الأمور وأحوال الناس المختلفة في هذه المملكة من جهة، وبالمقارنة مع وصفه وتصويره المتكامل للمرأة التركية من جهة أخرى، إلا أنه ما يستثير اهتمامه كذلك في هذا الموطن هو الحرية المطلقة التي تعيشها هذه المرأة، وكذلك التناقض الزهيب بين ما يتوقع أن يكون وبين ما هو كائن، فهو من جهة يرى أن الرجال والنساء ينزلون " إلى النهر فيغتسلون جميعا عرا، لا يستتر بعضهم من بعض " ⁴⁷ "ومن جهة أخرى " من زنا منهم كائنا من كان ضربوا له أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها، وقطعوه بالفأس من رقبته إلى فخذه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضا، ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة " ⁴⁸ " فهم في هذا الأمر كالأترك تماما، يوفرّون كلّ أسباب الفحش، من عدم احتجاب المرأة واستنارها ثم يعاقبونها إذا هي زنت بأشنع صورة وأشنعها. وفي كلّ هذا لا تغيب عن ابن فضلان رسالته التوجيهية التربوية والدينية، فیهب ناصحا هؤلاء النساء إلى الاحتشام والسّرة ولكن دون جدوى " ومازلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة، فما استوى لي ذلك " ⁴⁹ " فيبدو أن هذه العادة عندهم محكمة، ألفوها فصعب عليهم تركها، ولكن ابن فضلان أدى وظيفة الإيلاج والإرشاد .

ج- صورة المرأة الروسية :

يبدو أن ابن فضلان قد شغله شأن المرأة الروسية، فنجدّه قدّم لنا عدّة صور عنها، فتارة هي امرأة ممتنه وضیعة، وتارة هي جارية لا حول لها ولا قوّة تحرق بموت مولاه، وتارة هي عجوز شمطاء تقبض أرواح الجوّاري وتقتلهن .

وكان أوّل ما لفت انتباه ابن فضلان من شأن المرأة الروسية حليّها وزينتها : " وكلّ امرأة منهم فعلى ثديها حقّة مشدودة، إمّا من حديد وإمّا من فضّة، وإمّا نحاس، وإمّا ذهب، على قدر مال زوجها ومقداره...وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضّة، لأنّ الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقا، وإن ملك عشرين ألفا صاغ لها طوقين، وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها طوقا لامرأته، فربّما كان في عنق الواحدة منهنّ الأطواق الكثيرة، وأجلّ الحليّ عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن، يبالغون فيه، ويشترون الخرز بدرهم، وينظمونه عقودا لنساءهم " ⁵⁰ .

ولكنّ هذه المرأة التي تتجمل بالحليّ، وتترنّ بالذهب والفضّة، لا حياء ولا حشمة لها فعلاقتها الجنسية مع الرجل ظاهرة مكشوفة، وهي في كلّ ذلك تشبه بضاعة تباع وتشترى، وقد سبق وأن أشرنا- لما تحدّثنا عن حياتهم الجنسيّة- أنّ الرجل منهم " ينكح جاريته ورفيقه ينظر إليه...وربّما يدخل التاجر عليهم ليشترى من بعضهم جارية فيصافه ينكحها، فلا يزول عنها حتّى يقضي أربه " ⁵¹ .

وهذا المثال يوضح أنهم يعيشون بلا ضوابط أخلاقية تنظم حياتهم الجنسية أو الزوجية، فما يقدمه الرحالة حولهم يجسد صورة بوهيمية تتلاشى فيها ضوابط العقل والمنطق، وتغيب الأخلاق وتعدم خاصة خلقي الحياء والغيرة، اللذين أشار كثير من الرحالة السابقين إلى غيابهما في هذه الأقطار القصية.

ويبدو أن ابن فضلان يسترعي اهتمامه شأن هذه الجارية التي تحرق مع مولاهما، وكيف أنها تلقي من الإهانة والتشكيل، وبشاعة القتل مالا يرتضيه النسق الثقافي الذي تشبع به ابن فضلان، والفضاء الجغرافي الذي خرج منه، فالمرأة هنا لا شأن ولا قيمة لها، ونحن نلاحظ أنه لما بسط لنا مشهد حرق الميت عندهم قد ركز في كل ذلك على ما يصنعونه بالجارية، فهي قبل أن تقتل لتحرق مع سيدها، تخضع لعمليات اغتصاب فظيعة، وتقتل بعدها بطريقة شنيعة، وكل ذلك يتم في إطار من القدسية حسبهم.

وفي مشهد الحرق كذلك تستثيره شخصية نسائية أخرى، إنها العجوز التي يطلق عليها ملك الموت، وهي المتكفلة بقتل الجوّاري اللّوآقي يردن الموت مع مواليهنّ، وقد وقف عندها ابن فضلان، وأثاره منظرها الخفيف، يقول: " وهي تقتل الجوّاري، ورايتها جوان بيرة (عجوز ساحرة)، ضخمة، مكفهرة".⁵² فيبدو له أن منظرها متناسق مع وظيفتها، فهي التي في النهاية تقتل الجارية بطريقة مريعة، فتضع حبلا في عنقها يشده رجلان، وتقبل هي بخنجر عريض التصل تطعن الجارية بين أضلاعها في جميع المواضع.

د- صورة المرأة الخزرية : (حسن فائق...ومتعة جنسية)

الصورة التي رسمها لنا ابن فضلان عن المرأة الخزرية تحكمها ثنائية من الصفات، فهي من جهة تتمتع بحسن فائق، وجمال كبير لكونها من جهة زوجة ملك الخزر، وابنة لأحد الملوك المجاورين له (فهي ابنة ملك وزوجة ملك)، وهي مع ذلك عند ملك الخزر لا تعدو كونها مجرد متعة جنسية، تلبي رغبات هذا الملك فيطلبها، فتجلب إليه من قصرها في طرفه عين، يسجل ابن فضلان ذلك في قوله: " ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة، كلّ امرأة منهنّ ابنة ملك من الملوك الذين يجاذونه، يأخذها طوعا أو كرها، وله من الجوّاري السّراري لفراشه ستون، ما منهنّ إلاّ فائقة الجمال، وكلّ واحدة من الحرائر والسّراري في قصر مفرد، لها قبة مغطاة بالسّاج، وحول كلّ قبة مضرب، ولكلّ واحدة منهنّ خادم يحجبها، فإذا أراد أن يطلّ بعضهنّ بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيؤافي بها في أسرع من لمح البصر، حتّى يجعلها في فراشه، ويقف الخادم على باب قبة الملك، فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة".⁵³

فهذه السردية المتفرّدة حول ما يصنعه ملك الخزر الذي عرف بخنكته وهيبته تظهر حجم الاهتمام الذي تتعرّض له المرأة الخزرية، إذ لا شأن لها، إنها تتداعى اجتماعيا وتنحط قيميا لتتحول إلى مجرد سلعة ومتاع يستهلك جنسيا ثم يردّ إلى موضعه، وهي وإن كانت تجمع بين الحسن الفائق، ورفاهية العيش، وتعيش بقصر لها وحدها، إلاّ أنها في الدرك الأسفل تراتيبا لا تتجاوز كونها وسيلة شبقية.

الخاتمة:

توصلت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج يمكن حصرها فيما يلي:

- وجدت أبحاث الصورة في حقل أدب الرحلات مجالا وميدانا خصبا استنتبت فيه الكثير من الصور التي نسجها الرحالة حول أقطار جغرافية عديدة ارتادوها، وشكلوا من خلالها صورا وتمثيلات عن الشعوب التي رأوها ومزروا بها، وكانت هذه التمثيلات تتراوح بين التمثيلية والتبخيص، أو الإنصاف والتصوير الصادق، حسب المرجعيات التي ينطلق منها كل رحالة.
- رحلة ابن فضلان اختراق جغرافي رحلي إلى بلاد الشمال انطلاقا من بغداد مركز الحضارة الإسلامية في العصر العباسي، وابن فضلان في الرحلة يقوم بدور الإداري والفقيه، الذي أوكلت إليه مهمة تفقيه ملك الصقالبة في أمور الدين، لكنه بمجرد أن يغادر دار الإسلام يتحول إلى أديب بارع ينقل لنا ما شاهده وما تفاجأ به في تلك البقاع من نسق ثقافي جديد وبنى اجتماعية مفارقة، وصور اثنوغرافية لم يتعود عليها، مما جعله يرسم صورة متفردة للشعوب الشمالية، جاءت تشرح بالاختلاف والتباين والتمطية.
- الصورة التي شكلها ابن فضلان في رحلته المشهورة عن أهل الشمال - على تنوعها وثرائها - لا تبعد في واقع الأمر كثيرا عن الصورة التي رسمتها الأدبيات الجغرافية في الفترة القرطبية عن هذه الأصقاع، والتي حكمتها في الغالب رؤيتان هما: الرؤية الحضارية والرؤية العقائدية.
- أخذت المرأة في الأقطار الشمالية نصيبا وافرا من الصورة التي رسمها ابن فضلان عن أهل الشمال، وجاءت صورتها في الغالب نمطية، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى التباين الزهيب بين نسق الرحالة الثقافي، وبين الأنساق الثقافية لهذه المناطق، فالمرأة التي تركها ابن فضلان في دار الإسلام تحتكم إلى شريعة ربانية تفرض عليها جملة من التعاليم والمبادئ التي تنظم حياتها فيما يخص الطهارة والاحتجاب، بينما تعيش المرأة في البلاد الشمالية (المرأة التركية، الصقلية، الروسية، الخزرية) حياة حرية تامة، تعلق فيها فتنة الشبقي، وينعدم فيها الحياء والاحتشام.

هوامش:

¹ ابن منظور: لسان العرب، دت، دار صادر، (بيروت)، طبعة جديدة، المجلد السابع، ص 303-304.

² إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات: المعجم الوسيط، (1972)، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، (اسطنبول، تركيا)، ج 1، ط 2، ص 528.

³ محمد ابن بكر التازي: مختار الصحاح، تخرّج وتعليق مصطفى ريب البغا، (1990)، دار الهدى للطباعة والنشر، (الجزائر)، ط 4، ص 242.

⁴ ابن منظور: مصدر سابق، ج 4، ص 474.

⁵ مجلة الرسالة، المجلد الثاني، السنة الثانية، ع 64، تاريخ 1934/09/24، ص 1756.

Dictionnaire, encyclopédique de psychologie, sous la direction de robert, sillamy broder, ⁶ paris, p 593.

⁷ جبران مسعود: الزائد، (1992)، دار العلم للملايين، (بيروت لبنان)، ط7، ص 503-593.

⁸ Paule robert, dictionnaire alphabétique et analogique da la langue français, rédaction dirigée par, A Rey, de bove 107, avenue par un entier, paris xi2,p 960.

⁹ سميتة بو الطين، فاروق فرحي: صورة العربي في المتخيل السردي الغربي " الغريب ألبير كامو نموذجاً "، 2011، (رسالة ماستر)، جامعة منتوري قسنطينة/ الجزائر، ص17.

¹⁰ دانييل هنري باجو: الأدب العام والمقارن، تر: غسان الشيد، دت، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق)، دط، ص90.

¹¹ سميتة بو الطين، فاروق فرحي: مرجع سابق، ص28.

¹² المرجع نفسه، ص28، نقلا عن: envy- of philosophy, vol8 édition in chief pour educands, the macmillanco ny, 1976, p133

¹³ سميتة بو الطين، فاروق فرحي: مرجع سابق، ص28.

¹⁴ المرجع نفسه، ص28 نقلا عن : علي عجوة: العلاقات العامة والصورة الذهنية، ص4.

¹⁵ سلاف بوحلايس: صورة الأنا والآخر في شعر مصطفى محمد الغماري، 2009، (رسالة ماجستير في الأدب الجزائري الحديث)، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر باتنة/ الجزائر، ص13.

¹⁶ المرجع نفسه ، ص13.

¹⁷ محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دت، دار العودة، (مصر)، دط، ص419.

¹⁸ أحمد ابن فضلان: رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والزوس والصقالبة، تحقيق الدكتور سامي الدّهان، دت، دم، دط، ص24.

¹⁹ المصدر نفسه، ص69.

²⁰ علاوي الخامسة: العجائية في أدب الرحلات رحلة ابن فضلان نموذجاً، 2005، (رسالة ماجستير في الأدب العربي)، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري قسنطينة/ الجزائر، ص156-157.

²¹ ناصر عبد التزاق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، (1995)، دار النشر للجامعات المصرية، (القاهرة)، ط1، ص241.

²² علاوي الخامسة: مرجع سابق، ص160.

²³ ناصر عبد الرزاق الموافي: مرجع السابق، ص242.

²⁴ المرجع نفسه، ص243.

²⁵ المرجع نفسه، ص99-100.

²⁶ المرجع نفسه، الصفحات: 99-100-101.

²⁷ علاوي الخامسة: مرجع سابق، ص168. نقلا عن: فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص177.

²⁸ المرجع نفسه، ص168-169.

- ²⁹ أحمد ابن فضالان: مصدر سابق، ص22.
- ³⁰ عبد الله إبراهيم: المركزية الإسلامية صورة الآخر في الخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، (2001)، المركز الثقافي العربي، (التار البيضاء، المغرب)، ط1، ص92.
- ³¹ المرجع نفسه، ص100.
- ³² شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي (التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، (2006)، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة)، ط1، ص323-324.
- ³³ محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، (2000)، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء، المغرب)، ط1، ص78.
- ³⁴ شعيب حليفي: المرجع السابق، ص324.
- ³⁵ المرجع نفسه، ص325.
- ³⁶ المرجع نفسه، ص326-327.
- ³⁷ علاوي الخامسة: مرجع سابق، ص191.
- ³⁸ عبد الله إبراهيم: مرجع سابق، ص94.
- ³⁹ ابن فضالان: مصدر سابق، (مقدمة التحقيق)، ص28.
- ⁴⁰ محمد نور الدين أفاية: مرجع سابق، ص80/79.
- ⁴¹ علاوي الخامسة: مرجع سابق، ص191.
- ⁴² عبد الله إبراهيم: مرجع سابق، ص94.
- ⁴³ المرجع نفسه، ص109.
- ⁴⁴ ابن فضالان، مصدر سابق، ص92.
- ⁴⁵ المصدر نفسه، ص92.
- ⁴⁶ المصدر نفسه، ص93.
- ⁴⁷ المصدر نفسه، ص134.
- ⁴⁸ المصدر نفسه، ص134.
- ⁴⁹ المصدر نفسه، ص134.
- ⁵⁰ المصدر نفسه، ص151/150.
- ⁵¹ المصدر نفسه، ص151.
- ⁵² المصدر نفسه، ص158.
- ⁵³ المصدر نفسه، ص171.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات: المعجم الوسيط، (1972)، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، (اسطنبول، تركيا)، ج1، ط2.

- 2- ابن منظور: لسان العرب، دت، دار صادر، (بيروت)، طبعة جديدة، المجلد السابع.
- 3- أحمد ابن فضلان: رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والحزر والتروس والصقالبة، تحقيق الدكتور سامي الدّهان، دت، دم، دط.
- 4- جبران مسعود: الزائد، (1992)، دار العلم للملايين، (بيروت لبنان)، ط7.
- 5- دانييل هنري باجو: الأدب العام والمقارن، تر: غشتان السيد، دت، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق)، دط.
- 6- سلاف بوحلايس: صورة الأنا والآخر في شعر مصطفى محمد الغاري، 2009، (رسالة ماجستير في الأدب الجزائري الحديث)، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر باتنة/ الجزائر.
- 7- سمّية بو الطين، فاروق فرحي: صورة العربي في المختل السري الغربي " الغريب ألبير كامو نموذجاً "، 2011، (رسالة ماستر)، جامعة منتوري قسنطينة/ الجزائر.
- 8- شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي (التجنس، آليات الكتابة، خطاب المختل)، (2006)، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة)، ط1.
- 9- عبد الله إبراهيم: المركزية الإسلامية صورة الآخر في الخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، (2001)، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء، المغرب)، ط1.
- 10- علاوي الخامسة: العجائبية في أدب الرحلات رحلة ابن فضلان نموذجاً، 2005، (رسالة ماجستير في الأدب العربي)، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة منتوري قسنطينة/ الجزائر.
- 11- مجلة الرسالة، المجلد الثاني، السنة الثانية، ع 64، تاريخ 1934/09/24، ص 1756.
- 12- محمد ابن بكر الزاوي: مختار الصحاح، تخرّج وتعليق مصطفى ريب البغا، (1990)، دار الهدى للطباعة والنشر، (الجزائر)، ط4.
- 13- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، دت، دار العودة، (مصر)، دط.
- 14- محمد نور الدين أفاية: الغرب المختل صور الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، (2000)، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء، المغرب)، ط1.
- 15- ناصر عبد الزواق الموافي: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، (1995)، دار النشر للجامعات المصرية، (القاهرة)، ط1.
- 16- Dictionnaire, encyclopédique de psychologie, sous la direction de robert, sillamy broder, paris, p 593.
- 17- Paule robert, dictionnaire alphabétique et analogique da la langue français, rédaction dirigée par, A Rey, de bove 107, avenue par un entier, paris xi2,p 960.